زهير هواري

تل الزعتر.. أيها الوطن المصلوب

تل الزعتر ! ايها الوطن المصلوب على خشبة الفريسين من الداخل والخارج .

تل الزعتر ! ايها الوطن المنتظر .. نحميك باهدابنا ونجعل من حبات عيوننا متاريس للدفاع عنك .

تل الزعتر ! يا وطن الفقراء والمعذبين ! يا وطن الذين لا وطن لهم ! ووطن الغرباء في وطنهم اللاجئين الى المخيمات رغما عن بطاقة الهوية !

* * *

تل الزعتر يا حلم الرجال ، ويا شجرة السنديان التى نمت فى ارض الجليل وبيارات الارض المقدسة ، وضربات جذورها عميقا في صدورنا ، في اعماق اعماقنا ، في ارض الجنوب .

تل الزعتر ! ايتها السنديانة الصامدة في وجه الاعاصير المتمردة على زمجرة رياح الشتاء والهمجية .

تل الزعتر ! ايها المسيح المصلوب !

تل الكرامة ومصنع الرجال !

تل الزعتر ايها النبي المقاتل !

تل البطولة والسواعد المتشابكة والجبهات المعقودة على النصر !

* * *

تل الزعتر ! نحن لم نزل على العهد ، لم نعد بعد خدما في كبريهات بيروت الموقرة ، بعد ان حملنا السلاح ، سلاح الثورة ولن نصير يا تل الزعتر ساقين في مقاهي واشنطن ولاس فيغاس او مونتى كارلو .

نساؤنا يا تل الزعتر لم تزل النساء الفلسطينيات واللبنانيات اللاتي لم يسمعن بمستحضرات التجميل واحدث المبتكرات العصرية ولا يجدن احاديث الصالونات المخملية . نساء لن يتحولن الى بائعات هوى على ضفاف بردى الدامعة .

تل الزعتر ايها المستقبل !

لا زلت اذكر فيك ذلك الطفل الصغير ، كان حافي القدمين ينتظر مدرب الاشبال فى ساحة مملوءة بالرمال والفقر والاطفال ايضا . كانت عيناه وآسعتين كالسماء ، وملامحه واضحة كالقمر فى مطلع الشهر يحمل في يده بندقية من الخشب . كان فضوليا كبقية الاطفال .

يعرف بعضا من تاريخ فلسطين .

سألته : كم ثورة هناك في الوطن العربي ؟

قال : ـ ثلاث :

فلسطين وظفار وارتيريا ...

لقد نسي صديقي الصغير ثورتنا في لبنان ، لانه يعيشها ، يشاهدها بام عينيه لقد نفدت الى عظامه بعد ان اخترقت الجلد . اما اللحم فلا تتحدث عنه لانه ليس موجودا .

ولماذا تتدرب يا فلان ؟؟..

لقد نسيت اسمه .. مع انني احببت فيه كل ما فيه ... فقره ، اصراره ، لمعات عينيه اللتين تشعان بالتحدي .

اجابني بابتسامة الطفل : ـ اتدرب لاقاتل الصهاينة والكتائب .

هذا الطفل قد كبر الان ، مع انني شاهدته في الشهر الثالث من القتال في لبنان ، لقد سجل فى قائمة الاسباب التى تدعوه لاجادة استعمال السلاح (الدفاع عن المخيم ضد ذئاب قاسيون) .

* * *

والنقيب عثمان من منكم يعرفه ؟

بالتأكيد ، لا احد يعرفه . لانكم لم تزوروا المخيم قبل ذلك . .. النقيب عثمان من ابوين فلسيطينيين . حصل على التوجيهية ودخل المدرسة الحربية حيث اصبح ضابطا في جيش التحرير ، قاتل في سيناء والجولان حتى حط به المقام في لبنان للدفاع عن المخيم .

النقيب عثمان ، ايها الافاضل ، دخل الجامعة وبدأ يدرس التاريخ عندما انفجر القتال . كان يقوم بدوره القتالي ، وفي اوقات راحته كان يتناول كتابه المقرر عليه في السنة النهائية ويقرأ ..

ايها السادة ، النقيب عثمان منذ وقت طويل لم يعد يقرأ لا كتب التاريخ القديم ولا كتب التاريخ الحديث . تسالونني : لماذا ؟ فأجيب : لان النقيب عثمان صنع بدمه تاريخنا . هذه هي قصته باختصار .

وام محمد ، امرأة فلسطينية فقيرة كبقية الفلسطينيين واللبنانيين الذين يقطنون في المخيم . تحصل على بعض المساعدات التي كانت تقدمها (الاونروا) . ام محمد هذه لها ابن يدرس في الجامعة وزوجها متوف . ام محمد تبيع الترمس والتشيكلس على ابواب براكيتها . والبراكية هي عبارة عن الواح من التنك تسمى بيتا .

في حرب تشرين ، ذهب محمد للقتال في الجبهة ، فقمنا يومها بنصب كمائن حول المخيم للدفاع عنه ضد ذئاب الصهاينة من الداخل ، والتى تحولت بقدرة قادرة الى عروبية اكثر منا لان المقياس تغير وهو السجود على اعتاب السلطان . ام محمد هذه كانت كل ليلة تسهر معنا ـ حتى الصباح تحضر لنا القهوة بالفناجين التى يشرب فيها الفلاحون ، القهوة المرة . كانت تحكي لنا كثيرا عن فلسطين . بالتأكيد هى تعرفها او تعرف قريتها على الاقل .

وكانت تحدثنا عن « سمن الغنم » و « الزعتر في فلسطين » و « البرتقال » وغير ذلك من طعام الفقراء الذين لا يعرفون لا الهمبرغر ولا السجق ولا الهوت دوغز . ام محمد ماتت ، هذا ما علمته من احد الاصدقاء . لم تمت ام محمد على الفراش بل قضت بقذيفة بينما كانت تسرع لالتقاط جريح اصيب بالرصاص على مقربة من احد الملاجيء الذي تقيم فيه ام محمد مع ٤٥ الف مواطن ومواطنة من ستة اشهر بالتمام والكمال ، لا ترى النور الا في النهار ولا ترى حتى المياه ، لان المياه والكهرباء مقطوعة . ولكن اذا كان الانسان يعيش من دون الكهرباء فكيف يفعل اذا قطعت المياه ؟

تعرفون شجرة الصبار التي تنمو في الصحراء وكيف انها تختزن مياه الشتاء في اوراقها المطلية بالشمع لتتغذى بها صيفا وتطرح تمرا وزهرا . ام محمد كشجرة الصبار بالضبط ، هذا ما كانت تفعله . لكن وكما تعلمون جيدا شوك الصبار قاس ومذاقه مر . وهكذا اللحم اللبناني ـ الفلسطيني في تل الزعتر . ولابد لمن يريد الوصول اليه من ان يدفع الثمن اضعافا مضاعفة .

على قبر صلاح‌الدين وقف احد الفرسان الصليبيين نجا من معركة حطين قائلا : ها قد عدنا يا صلاح الدين ! عدنا ولكن من خلال ابنائك لن نخسر بعد الان لا فارسا ولا رجلا ، فقد جاء الصليبيون الان بالحطة والعقال .

وصرخت امرأة من جسر الباشا قتل الانعزاليون زوجها وفلذات اكبادها وشاهدت دماءهم وهم يتخبطون بها بام عينيها ـ صرخت تلك المرأة « وامعتصماه » ولكن احدا لم يجب ، وضاعت صرختها في صدى لانها في جنبات صحرائنا الواسعة في المساحة .

تبا لك ايها الزمان !

قالها عجوز جنوبي لبناني مقيم في تل الزعتر ، بينما كان ينظر الى جاره القريب منه في الملجأ وبصق على الارض بعد ان ابتلع كل ما جادت به لفافته من دخان ، وران صمت عميق قطعته انفجارات القذائف واصوات الرصاص .

« الجمهورية » البغدادية
٢٨ تموز ١٩٧٦

صدر حديثا

الشياح

بقلم

اسماعيل فهد اسماعيل

اول رواية مستوحاة من احداث لبنان الاخيرة

منشورات دار الاداب

ذوالنون الأطرقجي

بريد بيروت

فيما يرى السامع يا بيروت
يمناك خنجر ، ويسراك سنبله
أراهما يصالبان ..
من يمص النسغ من شريان يسراك ولا يموت ؟
بيروت
يا موجة تصهل في نوافذ البيوت
يرشنا شلال ورد ودم من اول الخليج حتى اول‌المحيط
وحين نمسح الوجوه في الصباح تصبغ الاصابع الحناء

★ ● ★

بيروت يا قمرنا المشطور .. ينعس الضياء
دبقا وباردا على صحارانا .. وتبرق الدماء
بريدها السريع ...
« ان القمر الغاطس في الدماء حق
والفداء وحد الارض ووسع السماء
فليرسل البحر زهور الموج ـ قتلانا ـ
عطر بريد الثورة الكبرى
في ارضنا الكبرى »

★ ● ★

ملاحظة :
ـ أتتركون موتنا يذبل مثل زهرة الربيع داخل الحدود؟
الموت ألا يكبر الموت
وينطفي كطفل فوق مهده الصغير
فلتنزرع صحراؤنا مرافئا تستقبل البريد
وترسل البريد ..
لتتسع للبحر .. للثورة !

★ ● ★

بيروت يا قنبلة تضج في الصدر
تفجري بحرا من الضوء على فضائح العصر
هذي شظاياك قناديل تلف جسد الليل
تضم رعشة المحيط والخليج ..
تقتلعنا وتبعثنا .. جداولا من لهب تصب في البحر ..

« الثورة » البغدادية
٦ تموز ١٩٧٦